"الخطاب الأندلسي ودوره في رصد هوية الشرق السياسية – رحلة ابن جبير نموذجًا"

د. صالح بن سليمان الكلباني

قسم اللغة العربيّة وآدابها، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة الشرقيّة، إبرا، سلطنة عُمان

البريد الإلكتروني Email : saleh.alkalbani@asu.edu.om

الكلمات المفتاحية: الأندلس، المضمر، الهوية السياسية، ابن جبير.

كيفية اقتباس البحث

الكلباني، صالح بن سليمان ، "الخطاب الأندلسي ودوره في رصد هوية الشرق السياسية – رحلة ابن جبير نموذجًا"،مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية، نيسان ٢٠٢٦، المجلد:١٦ ،العدد:٤ .

هذا البحث من نوع الوصول المفتوح مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي لحقوق التأليف والنشر (Creative Commons Attribution) تتيح فقط للآخرين تحميل البحث ومشاركته مع الآخرين بشرط نَسب العمل الأصلي للمؤلف، ودون القيام بأي تعديل أو استخدامه لأغراض تجارية.

مفهرسة في Indexed
IASJ

مسجلة في Registered
ROAD

"Andalusian discourse and its role in monitoring the political identity of the East - Ibn Jubayr's journey as a model"

Saleh bin Sulaiman Al Kalbani
Department of Arabic Language and Literature, College of Arts and Humanities, A'SHARQIYAH UNIVERSITY, Sultanate of Oman

Keywords : Andalusia, implicit, political identity, Ibn Jubayr.

How To Cite This Article
Al Kalbani, Saleh bin Sulaiman," Andalusian discourse and its role in monitoring the political identity of the East - Ibn Jubayr's journey as a model",Journal Of Babylon Center For Humanities Studies, april 2026,Volume:16,Issue 4.

This is an open access article under the CC BY-NC-ND license (http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License.

Abstract:

This study aims to examine the contribution of Andalusian writings—specifically travel literature—in shaping a political identity for the Eastern Islamic world, through an analytical reading of Ibn Jubayr's travelogue as a prominent example of such texts.

The significance of this research lies in its illumination of the cultural and political interactions between two major poles of the Arab and Islamic world: al-Andalus and the Mashriq. These interactions reveal the role of Andalusian travelers in documenting pivotal transformations within the Islamic world during the 6th century AH, particularly in the realms of politics and society, with a focus on the symbolic structure of discourse.

The central research question revolves around how Ibn Jubayr perceived and portrayed the political identity of the East during his travels, the extent to which his Andalusian background influenced his vision of the political and social spheres, and how latent violence is manifested within his narrative.

The study adopts a pragmatic-hermeneutic approach that explores the implicit dimensions of the text to uncover indirect meanings and actions in the travel discourse. It also analyzes symbolic violence through the lens of Pierre Bourdieu's concepts, aiming to reveal representations of submission and domination.

The research draws on contextual analysis to link discourse with Eastern transformations and employs literary comparison to identify both the specific and the universal in the studied narrative.

The findings indicate that Ibn Jubayr's journey expressed a sharp political awareness of the Eastern situation, particularly amid the conflicts among Islamic powers such as the Fatimids, Ayyubids, and Abbasids. The study uncovers a pragmatic subtext that conveys critical stances toward certain forms of governance, while also offering justificatory views grounded in religious contexts. Violence in the discourse is evident in the depiction of certain social groups or rituals, implicitly reflecting ideological positions. Ultimately, Ibn Jubayr articulated a distinctly Andalusian identity—yet one that remained open to the unity of the ummah, balancing between local affiliation and broader belonging.

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة مساهمة الكتابات الأندلسية – أدب الرحلة تحديدا– في رسم هوية سياسية للمشرق، وذلك بتحليل رحلة ابن جبير بصفتها نموذجا بارزا لتلك الكتابات.

وتظهر أهمية البحث في هذه المسألة في تسليط الضوء على تفاعلات ثقافية وسياسية بين قطبين من أقطاب العرب والمسلمين هما الأندلس والشرق، كاشفة تلك التفاعلات عن دور الرحالة الأندلسيين في توثيق تحولات لها أهميتها في العالم الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، في مجالات السياسة والمجتمع، مركزا على البنية الرمزية للخطاب.

وتتلخص إشكالية البحث في رصد الكيفية التي رصد بها ابن جبير هوية الشرق السياسية في ترحاله، وما مدى تأثير خلفيته الأندلسية في تشكيل رؤيته لهذين المجالين – السياسي والاجتماعي–، وكيف يتجلى العنف المضمر في ذلك الخطاب.

وسيعتمد البحث منهجا تداوليا تأويليا يتناول المضمر لفهم المعاني والأفعال غير المباشرة في خطاب الرحلة المدروسة، وتحليل العنف الرمزي وفقا لمفاهيم بيير بورديو سعيا لكشف تمثّلات الخضوع والهيمنة، والاستئناس بالسياق الذي لا بد منه لربط الخطاب بتحولات الشرق، والمقارنة الأدبية لتحديد الخصوصية والعموم في الخطاب المدروس.

وبلغ البحث أن رحلة ابن جبير عبّرت عن وعي سياسي تجاه أوضاع الشرق اتسم بالحدة، خاصة في ظل صراعات بين أقطاب إسلامية في تلك الأحايين كالفاطمية والأيوبية والعباسية، وكشف البحث مضمرا تداوليا قدّم مواقف نقدية عن بعض أشكال الحكم، وتبريرية مستأنسة بسياقات دينية. وتجلى عنف في الخطاب من خلال وصف فئات من الناس أو بعض الطقوس؛ الأمر الذي يضمر –في حد ذاته– موقفا أيديولوجيا، ولقد عبر ابن جبير عن هويّة أندلسيّة صرفة لكنها وردت منفتحة على وحدة الأمة، موازنة بذلك بين انتماء محلي وانتماء جامع.

المقدمة

الكتابات الأندلسيّة من أبرز الشواهد التي تعكس تفاعل الأندلسيين مع الشرق العربي والمسلم، وهذا بطبيعة الحال الذي تعبر به الكتابات صراحة أو ضمنا أو تعبر به، هذا على وجه العموم، أما الخصوص فإن أدب الرحلة من أبرز تلك الشواهد، ليس على مستوى جغرافي أو ديني فحسب، بل على مستوى سياسي واجتماعي؛ فقد شكلت تلكم الرحلات نوافذ يطل منها الفرد على فضاءات معرفية تتضمن مشاهد حياتية وتحولات شهدها الواقع الشرقي في القرون الوسطى وسط ما كانت تعانيه من صراعات في أمصار متعددة تتجاذب مراكز القوة والفاعلية.

ومن بين تلك الكتابات الطليعية تتجلى رحلة ابن جبير (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار) كوثيقة تعكس هوية الشرق السياسيّة في القرن ٦هـ/ ١٢م. ولد ابن جبير في الأندلس بمدينة بلنسية الواقعة على الساحل الشرقي للأندلس، وعلى ضفاف البحر الأبيض المتوسط، وكانت تاريخ حياته بين عامي (١١٤٥–١٢١٧م) ضمن دولة الموحدين التي امتدت من المغرب إلى الأندلس الأمر الذي أكسبه تفكيرا مقارنا بين قطرين.

وتكمن أهمية رحلة ابن جبير في أنها توثيق لما شاهده خلال رحلته إلى الحجاز وبلاد الشام ومصر جغرافيا، وتزامنت سياسيا مع ضعف كانت تعانيه الخلافة العباسيّة مقابل صعود

الدولة الأيوبية وتراجع الفاطميين. امتازت الرحلة بثراء لغوي ووصف دقيق، وتضمنت في طياتها مضمرا وعنفا يعكسان رؤية هذا الخطاب للسلطة والمجتمع والدين من متكلم أندلسي مسلم.

ويسعى هذا البحث إلى تحليل خطاب سياسي مضمر في الرحلة المدروسة، من خلال الاستئناس بالتداولية، والعنف والمضمر اللذان يكشفان عن جانب من هوية الشرق صاغها الرحالة الأندلسي بحمولة لها دلالاتها وإشاراتها في فهم علاقة بين الانتماء الأندلسي والشرقي في سياقات مختلفة أحاطت بالرحلة.

إشكالية البحث:

تظهر إشكالية البحث في الكيفية التي عبرت بها الكتابات الأندلسيّة، وأدب الرحلة أنموذجا عن هوية الشرق السياسيّة من خلال تحليل خطاب ابن جبير في رحلته. ويتفرع من هذه الإشكالية تساؤلات مثل: هل كانت الصورة المنقولة عن الهوية انعكاسا واقعيا أم إنها صورة مشبعة بالمضمرات التي ينبغي استنطاق الرحلة للكشف عنها؟.

أسئلة البحث:

يسعى البحث إلى الإجابة عن سؤال: كيف أسهم خطاب ابن جبير الأندلسي في رصد هوية الشرق السياسيّة؟ ويتناسل من هذا السؤال المركزي أسئلة فرعيّة، وهي:

ما الهوية السياسية للشرق كما صورتها رحلة ابن جبير؟

كيف يكمن المضمر التداولي في الخطاب المدروس؟

ما أشكال العنف المضمر في وصف السلطة والمجتمع.

كيف أثرت الخلفية الأندلسية لابن جبير في وصفه للشرق؟

ما مدى القدرة على اعتبار الرحلة وثيقة سياسية غير مباشرة عن الشرق؟

الدراسات السابقة:

تناولت أدب الرحلة الأندلسي وابن جبير العديد من الدراسات، منها:

عبد العزيز حمودة (٢٠٠٥). الرحلة في الأدب العربي. القاهرة: دار الفكر العربي. وقد تناولت تطور أدب الرحلة في السياق العربي، مع إشارات إلى الرحلات الأندلسية.

عبد الهادي التازي (١٩٩٢). رحلة ابن جبير: دراسة وتحقيق. الرباط: دار الغرب الإسلامي. وهي دراسة عنيت بالنقد والتحقيق العلمي للرحلة، بالإضافة إلى تحليل لغوي وتاريخي.

محمد بن شريفة (١٩٩٨). الرحلة في الأدب الأندلسي. الرباط: منشورات كلية الآداب. ركزت على الخصوصية الأندلسية في أدب الرحلة، ومنها رحلة ابن جبير.

المنهجية:

يعتمد البحث على منهج تداولي تأويلي يجمع بين التحليل التداولي للمضمر؛ وذلك للكشف عن الأفعال غير المباشرة التي يحملها الخطاب المدروس. وتحليل العنف المضمر؛ وذلك لكشف ممارسة الهيمنة أو الانحياز مع ربط نسق البحث بسياقاته التاريخية والأدبية للكشف عن خصوصية الرحلة والمتكلم أو التوجه الثقافي الأندلسي. واستقر رأي البحث على هذا المنهج إذ الرحلة وصف لما يمر على الرحالة أمام بصره أو بصيرته ولكن وصفه ذاك يكون نتيجة لقول الثقافة والتجارب ودلالات أخرى مضمرة في ذلك الخطاب تسكن مكانا غير السطح الوصفي.

هيكل البحث المقترح:

المقدمة

١- الإطار النظري والمنهجي

١-١ التداولية والمضمر في الخطاب

١-٢ العنف المضمر رمزيا في الخطاب

١-٣ أدب الرحلة الأندلسي: الخصائص والوظائف

٢- الشرق في المخيال الأندلسي –

٢-١ قراءة في رحلة ابن جبير من الوصف إلى التداخل بين المضمر والعنف

٢-٢ المضمر في **صورة السلطة** في الشرق: بين الإعجاب والتحفظ

٢-٣ المضمر في **تمثيل الطوائف** الدينية

٢-٤ المضمر **في علاقة القداسة والسياسة**

٢-٥ العنف الرمزي المضمر في **تمثيل الفئات الاجتماعية**

٣- الهوية والانتماء

٣-١ الأندلسي مقابل الهوية الشرقية

٣-٢ الانتماء الإسلامي الجامع –الهوية الجامعة والمزدوجة

النتائج

قائمة المراجع

١- الإطار النظري والمنهجي

١-١ التداولية والمضمر في الخطاب

التداولية من أبرز المدارس اللسانية التي اتمت بدراسة اللغة في حال الاستعمال، مركزة على العلاقة بين المتكلمين، وعلى ما يمكن فهمه من دون أن يُصرَّح به، والمضمر التداولي الذي ترمي إليه التداولية أحد العناصر المهمة الجوهرية في هذا الحقل؛ لأنه يشير إلى يبحث في عمق الأفعال الكلامية لا في سطحيتها وظاهر النص، ونحن نفهم اللغة بما تضمره وتجيزه أبلغ مما تقوله صراحة.

وفي هذا الإطار يشير محمد مفتاح إلى أن "الخطاب لا يُفهم إلا من خلال علاقته بالسياق، وأن المعنى لا يُستخلص من البنية اللغوية وحدها، بل من التفاعل بين النص والمقام" (مفتاح، ٢٠١٠، ص. ٤٥). وهذا مما يعزز انتقاء رحلة للدراسة عموما، ورحلة ابن جبير على وجه الخصوص؛ إذ تُعدُّ نصا ثريا بالمضمرات التي لا تفهم إلا بسبر أعماقها والسياق السياسي والديني الذي صيغت فيه. وفي هذا السياق فإن المضمر التداولي لدى ابن جبير يستعمل لإيصال مقاصد في الخطاب مضمرة، ويتمثل ذلك على سبيل المثال حال وصفه لبعض الحكام أو الطوائف بأفعال كلامية محايدة ظاهريا، لكنها تحمل دلالات تفهم من السياق المصاحب لتلك الأقوال سياسيا وثقافيا.

١-٢ العنف المضمر رمزيا في الخطاب

العنف المضمر الذي يعتني البحث به هو الهيمنة أو الإيذاء أو الإكراه الذي يتسلل من خلال اللغة بلطف، وتكمن أهميته في سريانه في نسق اللغة وقبوله من المتكلم؛ لأنه يقدم فعلا كلاميا طبيعيا إلا أن المسألة الأهم تكمن في الفعل التأثيري لتلك الأفعال الكلامية، الذي يبتعد عن العنف المادي الممكن اكتشافه وملاحظته من المخاطَبين.

يقول بورديو: "العنف الرمزي هو عنف لطيف، غير محسوس، يُمارس أساسًا من خلال وسائل الاتصال، والتعليم، والدين، ويُفرض على المتلقي باعتباره شرعيًا" (بورديو، ١٩٩٤). وفي ضوء هذا المفهوم، يمكن مقاربة خطاب ابن جبير على أنه ممارسة لغوية تتضمن عنفا مضمرا في أنساق مختلفة، ويستعمل البحث هذا المنظور لأنه يتعامل بحياد مع الفعل الكلامي وبشيء من عدم الموثوقية؛ إذ يعطل القراءة الحرفية ومعانيها ثم يُعيد –من الخطاب– إنتاج تصورات معينة عن "الشرق" و"السلطة" و"الآخر" من خطاب ابن جبير ومكانته بصفته رحالة أندلسي.

ولاحظ عبد السلام المسدي أن "الخطاب السياسي العربي غالبًا ما يُمارس العنف الرمزي من خلال التلميح والتأطير الثقافي، لا من خلال التصريح المباشر" (المسدّي، ٢٠٠٢، ص. ٨٨)،

وهذا مما ينطبق على خطاب ابن جبير حين يصف بعض المشاهد السياسية دون أن يهاجمها صراحة بل من خلال إشارات مضمرة لكثير من الدلالات.

١-٣ أدب الرحلة الأندلسي: الخصائص والوظائف

لا يمكن عدّ أدب الرحلة الأندلسية لابن جبير وصفا جغرافيا أو تصويرا لمشاهد شخصية في رحلته إلى الحج فقط، بل خطاب يصور رؤية الرحالة للعالم الذي رآه بما يتضمنه من تقاطعات مختلفة، تبين هوية ما من الأفعال الكلامية التي يظهرها الخطاب ويضمرها، وتتمثل طرافة الرحلة وعرضها لهوية غير معلنة من خصوصيتها التي نبعت من تموقع بعيد عن المركز الإسلامي التقليدي، مما يجعلها تجربة ثقافية وسياسية مثرية.

ويؤكد محمد بن شريفة ما يذهب إليه البحث بقوله: "الرحالة الأندلسيون لم يكونوا مجرد ناقلين للمشاهد، بل كانوا يعيدون تشكيل الواقع وفقًا لرؤيتهم الثقافية والسياسية" (١٩٩٨، ص. ١١٢). وتُعد رحلة ابن جبير من أبرز النصوص التي أعادوا قراءة الواقع في الشرق حين جمعت بين التوثيق الجغرافي، والوصف الاجتماعي، والتأمل السياسي، مما جعلها في صدارة النصوص الثرية لتحليل الهوية.

دوافع الرحلة وإطارها الزمني:

– بدأت رحلته الأولى سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م واختلف في سببها مع اتفاق بعض المصادر كالمقري في أنها كانت تكفيرا.

– استغرقت الرحلة قرابة الثلاث سنوات، مروراً بمصر والحجاز والعراق والشام، مسجلاً تفاصيلها في مذكرات يومية دقيقة. اعتمد ابن جبير على المشاهدة المباشرة والتوثيق اليومي، مما أعطى روايته مصداقية تفوق رحالة آخرين مثل ابن بطوطة الذي أملى رحلته لاحقاً.

– جمع ابن جبير في رحلته بين الوصف الموضوعي (المسافات، المعالم العمرانية) والانطباع الذاتي مثل: (نقد الفساد، تمجيد الأبطال)، وهذا مما جعل الرحلة مرآة تعكس هوية سياسية متعددة أبعادها.

٢– الشرق في المخيال الأندلسي –

٢-١ قراءة في رحلة ابن جبير من الوصف إلى التداخل بين المضمر والعنف

لا يمكن فصل الأفعال الكلامية عن المضمر التداولي، ولا هذا الأخير عن العنف الرمزي، فهي تُمارس من خلال اللغة المباشرة الواصفة، وباللغة غير المباشرة التي تُنتج خطابًا سياسيًا ناعمًا، قد يهدف إلى تشكيل الواقع أو خلقه دون أن يظهر تصادما معه.

وتختلف صورة الشرق في خطاب **ابن جبير** عنها عند ابن بطوطة وابن حزم باختلاف الوضعية الخطابية والوظيفة التداولية للكتابة؛ فابن جبير ينطلق من موقع الحاجّ الأندلسي الذي يرى الشرق مركزًا مقدّسًا ومعيارًا أخلاقيًا، فيمزج الوصف بالتقويم، ويكشف المفارقة بين قداسة المكان واختلال الممارسة السياسية والاجتماعية، بما يمنح خطابه بعدًا نقديًا إصلاحيًا ضمنيًا، بينما يتعامل **ابن بطوطة** مع الشرق بوصفه فضاء تجربة ضمن عالم واسع من الأسفار، فتغلب على خطابه النزعة الحكائية والغرائبية وتعدّد المشاهد، دون تحميل المكان مركزية معيارية ثابتة، في حين لا يقدّم **ابن حزم** رحلة سردية أصلًا، بل يحضر الشرق في كتاباته بوصفه مجالًا معرفيًا وجدليًا، تُناقَش فيه المذاهب والسلطات العلمية من منظور نقدي عقلاني يؤكد الندية الأندلسية ولا يمنح الشرق تفوقًا مطلقًا؛ وعليه، فاختلاف تمثيل الشرق هنا ليس مكانيًا، بل هو نتاج اختلاف الذوات المتكلمة وأفقها المعرفي والوظيفة الخطابية التي تنهض بها الكتابة.

وخطاب ابن جبير لا يمكن قراءته على أنه وصف ظاهري سطحي، بل يجب الأخذ به وتحليله بوصفه ثريٌّ بالمضمرات والعنف؛ فكثير من المعاني لم تقال صراحة لكن يمكن فهمها من السياق، وتُعد تلك المضمرات من أهم أدوات التأثير في الخطاب السياسي والثقافي؛ فهي وسيلة – بأفعالها الكلامية– لفرض الهيمنة من خلال الإيحاء أو التلميح أو التصنيف أو الوصف. وتؤكد أوريكيوني أن "المضمر ليس مجرد نقص في التعبير، بل هو استراتيجية تواصلية تُمارس من خلالها السلطة الرمزية، حيث يُقال الشيء دون أن يُقال، ويُفهم دون أن يُصرّح به" (أوريكيوني، ٢٠٠١، ص. ٩١).

٢-٢ المضمر في صورة السلطة في الشرق: بين الإعجاب والتحفظ

يصف ابن جبير صلاح الدين الأيوبي كثيرا، وفي وصفه ذلك يستعمل لغة مديح صريحة، ومع صراحة تلك الأفعال اللغوية المستعملة لكنها لا تخلو من دلالات مضمرة لم تقل في عرض القول في أوصاف الرحلة ونقدها المادح والقادح، ومن ضمن الأفعال اللغوية التي تحمل مضمرات تداولية قول ابن جبير:

"السلطان بها صلاح الدين يوسف بن أيوب، وهو السلطان العادل، ذو الحزم والصرامة، قد دانت له البلاد، وخضعت له الرقاب..." (ابن جبير، ١١٨٥/٢٠٠٤، ص. ٤٥).

هذا الخطاب يصف الحاكم في دلالته المركزية إلا أنه مع ذلك يقدم نموذجا على السلطة المثالية التي ترتبط فيما يقدمه الخطاب بالكفاءة الإدارية وليس بأشياء أخرى قد تكون راسخة في أذهان بعض الناس كالنسب والوراثة، وابن جبير في خطابه هذا يمارس تقييما سياسيا مضمرا يقارن فيه نظاما حاكما في الشرق وما يحمله من دلالة هامشية ذاتية أخرى عن السلطة في الأندلس. وفي

قوله "دانت له البلاد، وخضعت له الرقاب" فعلا إنجازيا يدل على هيمنة، وهي تقام في إطار شرعي، مما ينجز كذلك فعلا إنجازيا وتأثيريا يدل على قبول ضمني لهذا العنف السياسي ويشرعن له فيما لو اقترن بالعدل، وهو تصوّر سياسي متقدم في سياقه التاريخي، وركّز على "الحزم والصرامة" مُلمّحا إلى أن الشرعيّة لا تبنى على النسب أو الدين فحسب، بل على الكفاءة والقدرة على إدارة أمور الحكم، وهو ما يتضمن وعيا سياسيا ضمنيا ما لدى المتكلم.

ويبرز ابن جبير إعجابه بالعدل في وصفه لمصر تحت حكم صلاح الدين الأيوبي، حيث يقول:

"ومن محاسن هذا السلطان العادل، إبطاله للمُكس الذي كان يؤخذ من الحجاج، فصار الحاج لا يُؤخذ منه شيء..." (ابن جبير، ١١٨٥/٢٠٠٤، ص. ٤٥)

هذا القول يعكس مضمرًا يشيد بالسلطة التي تحترم القيم الإسلامية، ويُظهر المُضْمر كيف أن ابن جبير– القادم من الأندلس – بشكل مقصود أو غير مقصود يعرض مقارنة بين أنظمة الحكم في الشرق العربي وأنظمته في المغرب، ولعل القول السابق يضمر مع الثناء فعلا إنجاريا سياسيا غير مباشر موجه إلى مخاطَبٍ أندلسي مقتضاه أن عدالة النظام ممكنة إذا ما توافرت الإرادة ليحقق نظام حاكم عادل مسلم (فرحان، ٢٠١٩).

وعلى هذا فإن ابن جبير يظهر مزجا بين الدين والسياسة خلال تنقله من قطر إلى قطر خاصة فيما يتعلق بمركز الدين الإسلامي (مكة والمدينة)؛ إذ يربط بين صلاح الحكم وصلاح الدين، ومنه قوله:

"ولولا ما يلقاه الحاج من جور بعض العمال، لكانت هذه البلاد أقدس بقاع الأرض وأطهرها." (ابن جبير، ١١٨٥/٢٠٠٤، ص. ٦١)

هنا، يُحمّل ابن جبير السلطة مسؤولية الحفاظ على قدسية المكان، مما يعكس تصورًا سياسيًا للدين، إذ لا تتجزأ العبادة عن العدالة الاجتماعية للسياسة. وهذا الربط بين الدين والسياسة يعكس رؤية أندلسية مشبعة بتجربة التوتر بين الدين كقيمة روحية والسياسة كأداة للهيمنة (فرحان، ٢٠١٩).

صورة السلطة والفساد الإداري:

سبق التطرق إلى أن ابن جبير كان يمزج السياسة بالدين ويربط صلاح الحكم بصلاح الدين ويعرض مما يعرض مدى تحقق العدالة الاجتماعية في البلدان التي مر بها، ومما صوّره عن صور السلطة في بعض البلدان:

- مصر: وصف فيها تعسف الولاة في الإسكندرية؛ إذ فُتِش الحجاج، وأجبروا على دفع ضرائب غير شرعية، معلقا على ذلك بأنه يفعل "دون علم صلاح الدين، ولو عرفه لأمر بقطعه كما قطع ما هو أعظم منه" (ابن جبير، ١١٨٥/٢٠٠٤، ص. ٣٨)
- الحجاز: انتقد فيها أمير جدة "مكثر بن عيسى"؛ لاستغلاله الحجاج عبر فرض "المكوس" (الضرائب) رغم تحذيرات صلاح الدين .
- العراق: وجد ابن جبير بغداد تعاني من الترهل الإداري، ووصف أهلها بقسوة، مشيراً إلى انهيار هيبة الخلافة العباسية.

٢-٣ المضمر في **تمثيل الطوائف** الدينية

استمر ابن جبير في رحلته واصفا ما يراه ببصره وبصيرته مثبتا إياه في مواقف تعكس هوية الشرق وهويته التي ترسخ في ذهنه، ومما تعرض له في المجتمعات التي مر بها؛ المذاهب والشعائر التي تمارس، ولا غرو أن الدين الإسلامي كان به اختلافات أفضت إلى اعتناق بعض المسلمين مسالك خاصة فرعية، ومما ورد في وصفه بعض الممارسات ما قاله عن الشيعة، إذ يقول:

"وأما الرافضة، فقلّ أن تراهم في الأسواق، ولا يُؤذن لهم بإظهار شعائرهم، وقد أراح الله البلاد من بدعهم" (ابن جبير، ١١٨٥/٢٠٠٤، ص. ٤٧).

ويمارس هذا النص عنفًا رمزيًا مزدوجًا يتمثل في فكرتين أساسيتين:

أولاهما: إقصاء رمزي للطائفة، عبر نفي وجودها في الفضاء العام للبلد.

ثانيهما: شرعنة هذا الإقصاء، باستخدام تعبيرات متعددة مثل قوله: "أراح الله البلاد"، مما يُضفي على التهميش طابعًا دينيا أوإلهيًا.

ووفقًا لبورديو (١٩٩٤)، فإن العنف الرمزي يُمارس حين تُفرض رؤية معينة للعالم بوصفها "طبيعيا"، وهو ذاته ما يفعله ابن جبير في مقولته المعروضة في هذا الجانب، حين قدَّم الإقصاء بوصفه راحة ونعمة. ويمكن بحسب (Philo، ١٩٨٩) تفشي ممارسات العنف بأنواعه في ظل وجود مجتمع أميّ أو قليل الثقافة؛ إذ إن قدرة أفراده على نقد لغة العنف ضئيلة، وإدراكهم محدود. علاوة على أن هذا التعبير يُخفي موقفًا أيديولوجيًا من الآخر المختلف عنه في مسائل فرعيّة، ويقصيه إقصاءً ناعمًا بلغة دينية. فالمضمر هنا هو خطورة الاختلاف المذهبي، وشرعنة إقصاءه من قِبل السلطة. وهذا يتقاطع مع ما تذكره أوريكيوني بأن "المضمرات تُستخدم لتوجيه المتلقي دون أن يشعر بأنه يُوجَّه" (أوريكيوني، ٢٠٠١، ص. ١٠٢).

ومما سبق يمكن الكشف عن انتمائه للموحدين في نقده اللاذع للمشرق، كما في وصفه أهل عيذاب بأنهم "فرقة أضل من الأنعام سبيلاً، وأقل عقولا...وبالجملة فهم أمة لا خلاق لهم" لاستغلالهم الحجاج (ابن جبير، ١١٨٥/٢٠٠٤، ص. ٤٨-٤٩). إضافة إلى ما أشار إليه من استقرار الأندلس تحت حكم الموحدين مقارنة بالفوضى التي بالشرق، معتبرا أن الشرق يحتاج إلى "خلاص موحدي".

٢-٤ المضمر في علاقة القداسة والسياسة

ربط ابن جبير الدين بالسياسة في خطابه فلا يكاد يتحدث عن أحدهما إلا ويستجلب الآخر صراحة أو ضمنا، ومثالا على ذلك ما ورد في وصفه للقدس تحت الحكم الصليبي، يقول:

"وقد أذن لهم الفرنج بذلك، على أن يُؤدوا الجزية، ويُراعوا شروط الذمة" (ابن جبير، ١١٨٥/٢٠٠٤، ص. ٨٩).

وفي قوله هذا يظهر تداخل الدين والسياسة في ذلك المكان؛ فابن جبير لا يكتفي بوصف الممارسات الدينية، بل يُبرز شروط ممارستها، مما يُظهر وعيًا سياسيًا في هذه الأقوال؛ لأن ممارسة الدين لا تكون في فراغ، بل بتنظيم سلطة تُسيره وتشرف عليه. وفي الوقت ذاته يُمارس ابن جبير نقدًا مضمرا للواقع السياسي، وإن لم يُصرّح بذلك، ويتضح من خلال إبراز المفارقة: أن المسلمين يُقيمون شعائرهم، لكن بإذن من غير المسلمين، مما يُنتج توترًا تداوليًا بين المعنى التعييني الظاهر والمعنى المضمر؛ إذ الخطاب يُظهر المسلمين في موقع الخضوع، لكن دون أن يُدين هذا الوضع صراحة، بل قدّمه وكأنه واقع طبيعي. وهذا التقديم يُمارس عنفًا رمزيًا مضاعفًا على مستويين:

أولهما على المسلمين؛ الذين يُمارسون شعائرهم بشروط، وثانيهما على القارئ؛ الذي يُطلب منه تقبّل هذا الوضع بوصفه قدرًا سياسيًا.

وتحدث ابن جبير عن عكا؛ واصفا معاناة الأسرى المسلمين تحت الاحتلال الصليبي، وكيف حول الصليبيون المساجد إلى كنائس.

٢-٥ العنف الرمزي المضمر في تمثيل الفئات الاجتماعية

يصف ابن جبير في مواضع عديدة الفئات الاجتماعية الدنيا، مثل الخدم أو العامة، بلغة تنم عن تفوق طبقي وثقافي، كما في قوله عن بعض سكان الإسكندرية:

"وأكثرهم في جهل عظيم، لا يعرفون من الدين إلا قليله، ولا من الأدب إلا اسمه" (ابن جبير، ١١٨٥/٢٠٠٤، ص. ٥٢)، وكذلك ما سبق التمثيل به من وصفه أهل عيذاب بأنهم "فرقة أضل من الأنعام سبيلاً".

هذا التمثيل يعكس عنفًا رمزيًا، إذ تُمارس هيمنة ثقافية ويُعاد إنتاج التراتبية الاجتماعية عبر الخطاب؛ فابن جبير – بوصفه مثقفًا أندلسيًا – يُمارس سلطة رمزية على الآخر الشرقي، حتى وهو في موقع الزائر (فرحان، ٢٠١٩). وهذا العنف الرمزي يعرض لمسألة الذاتية والموضوعية لدى ابن جبير حين يظهر أحكاما وانطباعات تدعي "همجية" أهل عيذاب أو "فضائل" صلاح الدين وهي أحكام يمكن أن يُفهم منها تحيزات لدى المتكلم بوصفه أندلسيا موحدا، ويعكس للمخاطَب رؤية للشرق من وجهة نظر مختلفة، تسعى أحيانا إلى أن تصبح – كما يذكر Tuastad (٢٠٠٣) – " وسيلة لإنتاج صور مشوهة للأشخاص الذين يهيمن عليهم".

٣– الهوية والانتماء

لا يُنظر – في أدب الرحلة الأندلسي – إلى الشرق بوصفه مجرد مقصد ديني أو جغرافي، بل فضاءً رمزيًا يُعيد الرحّالة من خلاله تشكيل وعيه بالذات والآخر. فالشرق– في وعي ابن جبير– ليس مركزا للدين، بل مركزا سياسيا وثقافيا، يُقاس عليه، ويُقارن به، ويُنتقد من متفحص أندلسي يربطه بالشرق أسباب عديدة، ويتباين معه بأشياء أخر. ولعل هذا التباين بين تنشئة الأندلس وطبائع الشرق وبيئته ينتج مقارنة لغوية واجتماعية ودينية تقبل شيئا وترفض آخر، وخطاب معقد إلى حد ما تتداخل فيه الهوية الجمعية، والهوية الخاصة، والسلطة، واللغة، وممارسة الشعائر الدينية. ويتطلب الفرز بين الأنا والآخر في الخطاب فهما لمضمر النص وما يحمل من تداخل من كل طرف في الحقول التي سبق ذكرها.

٣–١ الأندلسي مقابل الهوية الشرقية

أظهر ابن جبير تعلقا ووعيا بالهوية الأندلسية، حينا عبر مقارنة الشرق بالأندلس، وحينا عبر الخطاب المضمر الذي يصف به الشرق؛ فنجده في حديثه عن أهل مكة، يصفهم بالجفاء مقارنة بـ"رقة طبع" أهل الأندلس:

"وأهل مكة فيهم جفاء وغلظة، وليسوا على ما عليه أهل الأندلس من رقة الطبع وحسن المعاملة."

(ابن جبير، ٢٠٠٤/١١٨٥، ص. ٧٣)

وهذا النوع من الخطاب يعكس ما يُعرف في الدراسات الثقافية بـ"التمركز حول الذات الثقافية"؛ إذ يُعاد إنتاج الهوية من خلال المقارنة مع الآخركما تطرق غربي (٢٠٢١) إلى ذلك.

ونجد ابن جبير في مواقف كثيرة يقارن ما يراه في الشرق وما اعتاده في الأندلس ويفضّله هذا الأخير على الشرق، الأمر الذي يُظهر تمايزًا هوياتيًا، حيث تُقدَّم الأندلس بوصفها نموذجًا

حضاريًا راقيًا، في مقابل مشرقٍ يُنظر إليه بإعجاب مشوب بالتحفظ. وهنا تتجلى الهوية الأندلسية بوصفها ذاتًا واعية بتفوقها الثقافي، حتى وهي في حضرة "المركز" الإسلامي.

وقد أشار بن شريفة (١٩٩٨) إلى أن "الرحالة الأندلسيين لم يكونوا مجرد ناقلين للمشاهد، بل كانوا يعيدون تشكيل الواقع وفقًا لرؤيتهم الثقافية والسياسية" (ص. ١١٢). وهذا الأمر يتجلى بوضوح في خطاب ابن جبير، إذ نجد من ضمن تفضيلاته:

– فضل المغرب (بما فيه الأندلس) بأنه يحافظ على "الإسلام الصافي" تحت حكم الموحدين، بينما رأى أن الشرق يعج بالبدع والفرق الضالة.

– وصف الدولة الموحدية بأنها "آخر أئمة العدل في الزمان"، مقابل فوضى الشرق التي تنبأ بزوالها على أيدي الموحدين.

– قدم صورة للشرق بصفته فضاء "مفككا سياسياً" لكنه "غني ثقافياً"، مبرزاً التناقض بين عظمة المساجد (كالأموي بدمشق) وفساد الأنظمة.

– ومما مقارنة المساجد "ولا من حسن التلاوة ما يُسمع من قرّائها" (ابن جبير، ١٩٨١/١١٨٥، ص. ٥٢).

– "وليحقق المحقق، ويعتقد الصحيح الاعتقاد، أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب" – ابن جبير. قال ابن جبير هذه العبارة مشيرا حيث أشار إلى أن الإسلام الحقيقي لا يوجد إلا في بلاد المغرب، وذلك بسبب التزام أهلها بالجادة الواضحة في الدين، بينما رأى أن الشرق يعاني من أهواء وبدع وفرق ضالة، باستثناء من عصمهم الله.

ويعكس هذا الراي فعلا مضمرا يعكس الواقع السياسي بطبع القول، ولكنه يضمر كذلك أن الموحدين هم أئمة العدل في ذلك الزمان مقارنة بالحكام الآخرين.

٣-٢ الانتماء الإسلامي الجامع –الهوية الجامعة والمزدوجة

رغم التمايز الذي مر علينا في الفقرة السابقة، لا يخلو خطاب ابن جبير من نزعة وحدوية، تتجلى في مواضع كثيرة، منها ما ذكره في معرض وصفه لمناسك الحج:

"فاجتمع في هذا الموضع من المسلمين ما لا يحصى عددهم، من أقطار الأرض، كلهم على قلب رجل واحد، في لباس واحد، وغاية واحدة." (ابن جبير، ٢٠٠٤/١١٨٥، ص. ٨٨)

ويجسد هذا المشهد ما يسميه غربي (٢٠٢١) بـ"الهوية الجامعة"، وهي هوية تتجاوز الخصوصيات الجغرافية والثقافية، وتُعيد تشكيل الانتماء على أساس ديني مشترك. وكشف ابن جبير أيضا "الهوية المزدوجة" للمسلمين؛ التي تتمثل في هوية مغربية مستقرة تحت دولة موحدة، وهوية شرقية ممزقة بفعل الصراعات؛ فهي تتنقل بين:

– موقع "الهامش" الأندلسي الذي يسعى إلى إثبات ذاته.

– وموقع "المركز" الشرقي الذي يُنظر إليه كمرجعية دينية وثقافية.

وقد أشار فرحان (٢٠١٩) إلى أن هذا التوتر هو سمة بنيوية في أدب الرحلة الأندلسي، حيث يسعى الرحالة إلى إعادة تعريف الذات من خلال الآخر، دون أن يفقد انتماءه إلى الجماعة الإسلامية الكبرى.

النتائج:

تناول البحث دور الكتابات الأندلسية في رصد هوية الشرق السياسية، وتوصل إلى جملة من النتائج، منها:

كشفت رحلة ابن جبير عن أن أدب الرحلة الأندلسي لم يكن مجرد تسجيل لوقائع السفر، بل كان أداة لإنتاج خطاب سياسي وثقافي يعكس موقع الأندلس في الخريطة الإسلامية. من خلال تمثيل السلطة، ووصف الفئات الاجتماعية، وتحليل العلاقة بين الدين والسياسة، يُعيد ابن جبير تشكيل هوية سياسية أندلسية تتأرجح بين الانتماء والاختلاف، بين المركز والهامش، وبين المثال والواقع.

تجلت الهوية السياسية في خطاب الرحلة من خلال تمثيل السلطة؛ إذ يعيد تشكيل مفهوم "الحاكم العادل" بوصفه تجسيدًا للشرعية السياسية الإسلامية، فمدحه لصلاح الدين الأيوبي لا يعكس فقط إعجابًا شخصيًا، بل يُعبّر عن نموذج سياسي مثالي يتطلع إليه الرحالة الأندلسي، في مقابل واقع سياسي مأزوم في الأندلس. وصوَّر الخطاب هوية الشرق السياسية: تمزق بين بطولة صلاح الدين وفساد الأنظمة، وبين الغنى الحضاري والضعف السياسي. ومثلت الهوية الأندلسية في رحلة ابن جبير نموذجاً للاستقرار تحت حكم موحدي، مع الحفاظ على النقاء الديني.

مارس ابن جبير نقدًا سياسيًا غير مباشر لنظام الحكم في الشرق من خلال وصفه للفساد الإداري أو ظلم بعض العمال، مما يُظهر وعيًا سياسيًا ناقدًا، لكنه مموه بلغة دينية أو أخلاقية. وأعادت الرحلة إنتاج الهوية السياسية الأندلسية بوصفها هوية "مهمشة" تبحث عن اعتراف من الشرق، لكنها في الوقت ذاته تُظهر تفوقًا حضاريًا وثقافيًا، مما يعكس توترًا بين التبعية والندية في تمثيل الذات السياسية.

أظهر الخطاب أن الانتماء الإسلامي، رغم شموليته، لا يُلغي الانقسامات السياسية والثقافية بين الأقاليم الإسلامية، بل يُعيد تشكيلها ضمن خطاب يوحد دينيًا ويفرق سياسيًا.

مثَّلت الكتابة الأندلسيّة وثيقة سياسية بامتياز؛ لأنها تُسهم في بناء وعي سياسي أندلسي يرى في الشرق مرآةً لتقييم الذات، وفي الوقت ذاته يُمارس نقدًا ضمنيًا للواقع السياسي في كلا الطرفين.

تُعد الكتابات الأندلسية والرحلية بصفة عامة مساهمة مبكرة في بناء وعي سياسي نقدي داخل الثقافة الإسلامية، إذ أظهرت كيف أن الرحالة الأندلسي لم يكن مجرد ناقل، بل فاعل في إنتاج المعنى السياسي من خلال أدوات لغوية وثقافية دقيقة.

تميّزت رحلة ابن جبير، المسجلة في كتابه "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" (المعروف اختصارًا بـ"رحلة ابن جبير")، بأنها وثيقة تاريخية وأدبية فريدة تكشف عن هوية الشرق الإسلامي في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي من خلال عين رحّالة أندلسي مثقف، جمع بين الدقة العلمية والانطباع الذاتي. ومن أهم مزايا رحلته في تمثيل هوية الشرق:

١. وصف متعدد الأبعاد للهوية الحضارية، مثل:

- الجغرافيا والعمران: قدم الخطاب وصفًا دقيقًا للمدن الشرقية مثل الإسكندرية والقاهرة ومكة ودمشق، مسلطًا الضوء على معالمها.
- الاجتماع والدين: لاحظ العادات الاجتماعية، وانتقد بعضها، وسجل الطقوس الدينية، وإن كانت بعضها موضع تشكيك تاريخي.

٢. التفاعل بين الشرق والغرب، مثل:

- الصراع الصليبي: وصف المدن الواقعة تحت الاحتلال الصليبي، ومعاناة الأسرى، وأبرز الخطاب دور بعض القادة سياسيا، مما يعكس الصراع كجزء من هوية الشرق السياسية.
- التأثير الثقافي: فقد أشارت الرحلة إلى استمرار التأثير العربي الإسلامي وتلاقح الهويات.

٣. النقد والهوية الذاتية، وتمثل في:

- الانقسامات الداخلية: انتقد الخطاب انحراف بعض الحكام ومدح آخرين؛ مما يكشف عن رؤية نقدية للهوية الإسلامية.
- المقارنة مع الغرب: رأى الخطاب أن المغرب (الأندلس) أكثر التزامًا بالإسلام الصافي مقارنة بالشرق الذي انتشرت فيه "البدع"، لكنه أقرّ بتفوق الشرق في العمارة والعلم.

٤. الأسلوب الأدبي كمرآة للهوية، واتضح ذلك في:

- الروح الشعرية: إذ مزج الخطاب الواقع بالانطباع الشخصي، كوصفه دمشق بـ"جنة الأرض"، مما يعكس الهوية الجمالية للشرق.
- التوثيق اليومي: إذ كان تسجيل الأحداث يوميًا بتواريخ دقيقة، مما يعزز مصداقية تمثيله للواقع، بخلاف ما قام به بعض الرحالة فيما بعد من إملاء بعد فترة من الترحال.

المراجع:

ابن جبير، محمد بن أحمد. (١٩٨١). رحلة ابن جبير. تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد. بيروت: دار الكتاب اللبناني. (الأصل ١١٨٥م).

أوريكيوني، كاترين. (٢٠٠١). المضمر. ترجمة: ريتا خاطر. الدار البيضاء: دار توبقال.

بن شريفة، محمد. (١٩٩٨). الرحلة في الأدب الأندلسي. الرباط: منشورات كلية الآداب.

بورديو، ب. (١٩٩٤). العنف الرمزي. ط٣. ترجمة: نظير جاهل. بيروت: المركز الثقافي

بورديو، بيير. (١٩٩١). الهيمنة الذكورية. ترجمة: صالح جواد الكاظم. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

بورديو، بيير. (١٩٩١). الهيمنة الرمزية. ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي. بيروت: المركز الثقافي العربي.

حمداوي، جميل. (٢٠١٢). منهجية محمد عابد الجابري في التعامل مع التراث العربي الإسلامي. شبكة الألوكة.

الخلف، سالم بن عبد الله. (٢٠١٩). إضاءات مشرقية على الغرب الإسلامي من خلال رحلة ابن شاهين. مجلة التراث العربي الإسلامي، جامعة الموصل.

الرحموني، محمد. (١٩٩٦). العجيب والغريب في رحلة ابن جبير: مكانته ووظيفته. مجلة المجمع العلمي العراقي، ٦٢(١)، ٥–٤١.

الشهاوي، أحمد. (٢٠١٩). الهوية في أدب الرحلة الأندلسي. مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ١٢(٣)، ٧٧–٩٤. العربي.

العروي، عبد الله. (١٩٩٢). مفهوم الدولة. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

غربي، رضوان. (٢٠٢١). الأبعاد الدينية والاجتماعية في رحلة ابن جبير الأندلسي. مجلة قراءات، ٨(٢)، ١١٢–١٣٠.

فرحان، عبد الله. (٢٠١٩). الهوية والسلطة في أدب الرحلة الأندلسي: قراءة في رحلة ابن جبير. مجلة دراسات أدبية، ١٢(٣)، ٤٥–٦٧.

فياض، حسام الدين. (٢٠٢٢). نظرية العنف الرمزي: دراسة سوسيولوجية تحليلية. منشور على ResearchGate.

المسدي، عبد السلام. (٢٠٠٢). الخطاب السياسي العربي. بيروت: دار الكتاب الجديد.

مفتاح، محمد. (٢٠١٠). تحليل الخطاب: نحو مقاربة تداولية. بيروت: المركز الثقافي العربي.

Philo, G. (1989.) *News content and audience belief* : a case study of the 1984/5 miners strike. PhD thesis, University of Glasgow.

Tuastad, D. (2003). *Neo-Orientalism and the new barbarism thesis: aspects of symbolic violence in the Middle East conflict* (s). Third World Quarterly, 24(4), 591-599.

References:

Ibn Jubayr, Muhammad ibn Ahmad. (1981). The Travels of Ibn Jubayr. Edited by Taha Abd al-Raouf Saad. Beirut: Dar al-Kitab al-Lubnani. (Original 1185 CE.(

Oricioni, Catherine. (2001). The Implicit. Translated by Rita Khater. Casablanca: Dar Toubkal.

Ben Sharifa, Muhammad. (1998). The Journey in Andalusian Literature. Rabat: Publications of the Faculty of Arts.

Bourdieu, P. (1994). Symbolic Violence. 3rd ed. Translated by Nazir Jahel. Beirut: The Cultural Center.
Bourdieu, Pierre. (1991). Male Domination. Translated by Saleh Jawad al-Kazim. Beirut: The Arab Organization for Translation.
Bourdieu, Pierre. (1991). Symbolic Domination. Translated by Abdelsalam Benabdelali. Beirut: The Arab Cultural Center.
Hamdawi, Jamil. (2012). Muhammad Abed al-Jabri's Methodology in Dealing with the Arab-Islamic Heritage. Al-Aluka Network. Al-Khalaf, Salem bin Abdullah. (2019). Eastern Insights into the Islamic West through the Journey of Ibn Shahin. Journal of Arab Islamic Heritage, University of Mosul.
Al-Rahmouni, Muhammad. (1996). The Marvelous and the Strange in the Journey of Ibn Jubayr: Its Status and Function. Journal of the Iraqi Scientific Academy, 62(1), 5–41.
Al-Shahawi, Ahmad. (2019). Identity in Andalusian Travel Literature. Journal of Arts and Humanities, 12(3), 77–94.
Al-Arabi.
Al-Aroui, Abdullah. (1992). The Concept of the State. Casablanca: Arab Cultural Center.
Gharbi, Radwan. (2021). Religious and Social Dimensions in the Journey of Ibn Jubayr al-Andalusi. Journal of Readings, 8(2), 112–130.
Farhan, Abdullah. (2019). Identity and Power in Andalusian Travel Literature: A Reading of the Journey of Ibn Jubayr. Journal of Literary Studies, 12(3), 45–67.
Fayyad, Hussam al-Din. (2022). The Theory of Symbolic Violence: An Analytical Sociological Study. Published on ResearchGate.
Al-Masdi, Abd al-Salam. (2002). Arab Political Discourse. Beirut: Dar al-Kitab al-Jadeed.
Miftah, Muhammad. (2010). Discourse Analysis: Towards a Pragmatic Approach. Beirut: Arab Cultural Center.